ليل بارد

حركاتهنَّ المكبّلة تخترق أديم جسدي، جدران المدرسة الباردة عاجزة أن تطفئ لهيب أحشائي، أصواتهنَّ تتهادى ما بين الخفض والعلو، والكلُّ في حيرة وارتباك، يسكن عني الألم فأكاد أغفو..

.. لكن.. ما لبث أن دبّ انفجار وسط السماء يهزّ الجدران ويخفض الرؤوس، غمرني الرعب، وشخصت عيناي في السماء فرأيتها تشتعل بالنيران المتطايرة وكأنَّ القيامة قد قامت..

كنت مستلقية على فراش من الإسفنج الرقيق الملتصق بالبلاط في أحد صفوف المدرسة، امتزج بي الرعب والألم في اتحاد غريب، تلك اللحظة التي يشعر فيها المرء أنه خائف على بيته.. على سمائه.. وعلى روحه.. تنصهر الأسماء كلها في لحظة خوف.. خوف من الداخل.. وخوف من الخارج.. لم أحتمل.. صرخت.. جاءني صوت خالتي تقول في جزع : تماسكي يا آمنة.. تماسكي..!

نظرتُ في عينيها وعضلات بطني تتقلّص إلى الداخل، تهجمُ على مركز الروح، تنتفض بشدّة، حدّقتُ في عينيها الخائفتين.. كأنّي أرى ولدها أحمد ، لقد كبّله النير عن لثم كفها، أمسكتْ بيديّ المنهكتين، سنوات وهو يشتاق لمسهما، يعتصر صوتي في أعماقي، يتلوّى وجهي عن اليمين وعن الشمال، أجرّب أن أدعو.. اللهمَّ حرِّره من سجنه.. اللهمَّ حرِّرهم.. جميعهم.

كانت النسوة من حولي يدعين ويبتهلن إلى الله وكل منهنّ تعرض مساعدتها على خالتي في حين انزوى بضعة من الرجال من العجَّز والشيوخ إلى الصف المجاور.. غططت في غيبوبة حملتني فوقهنّ، فرأيت جسدي يتلوّى بين أيديهن، تفرّجت على آلامي وصرخاتي وقد خرجت منها ذاتي، رأيت أطفالي ملتصقين بأطفال أخر يستجلبون الدفء من دثار واحد، ويستجلبون النوم هرباً من أصوات القصف و الدويّ..!

رأيت زوجي وابني محمد البكر هناك.. بين الأشجار يبصران بنور الله، ويسددان بقوة الحق.. يتعاركان مع الموت.. مع الدم.. هناك عندما كنا صغاراً.. كنا نرى في الأحمر لون الزهور والورود، لون فساتين العيد، لون معجون الطماطم الذي كانت تدهنه أمي على الخبز مع الزيت والنعناع فتحوله إلى شطيرة شهية، واليوم.. بتنا

نرى في الأحمر ما يفوق ذلك بكثير.. الدم..الدم الذي غطى كل الأشياء الحلوة، محا كل الذكريات الجميلة.. شوّه صور الطفولة وقضى على كل رهافة إحساس، قرأت عن حالات يخشى أصحابها رؤية الدم.. بل ويصاب بالإغماء لمجرّد رؤية جرح ينزف.. ولهذه الظاهرة تحليلات طبية.. لكن تلك الحالات حتماً ليست عندنا .. ولا على أرضنا.. فنحن من طينة أخرى.. طينة جبلت مع التراب والماء بالدم.. لتعتاد رؤية الدم .. لأنه داخل بيوتنا.. ربما يشاركنا طعامنا.. ينام على الصحف والمجلات التي نمدُّها تحتنا فيضاجعنا فراشنا.. أجل.. لقد ألفته أعيننا كما ألفت الكثير من القبح..!!

عدت فارتطمت بجسدي، طفلي يناطحني.. مصرّ على الحياة، والموت يلحّ عليّ .

توالت عليّ أصواتهنّ..دعواتهنّ.. نثرن عليّ المواعظ والوصايا، تغلغلت إليّ همساتهنّ.. "ولادتها عسرة، هل من بين النسوة من تجيد القبالة..؟".

نظرت إلى جارتي أم صبحي، غارت عيناي في وجهها الحزين الحائر، رأيت في تضاريسه كلَّ سنوات الترمُّل التي عاشتها.. وكلَّ الكفاف الذي عاشته مع أولادها الخمسة بعد استشهاد أبي صبحي، وها هو ولدها صبحي قد التحق مع رجالنا بالمقاومة، تعلّمت من

أم صبحي المرأة الأميّة كيف أعتزّ بديني قولاً وفعلاً، ما من دين أعظم من دين يطالب بالاستكانة والقوة معاً، بالاستسلام والإرادة معاً.. كيف ذلك يكون..؟ وأي عظمة تدفع بالمؤمن أن يجيد هذا الجمع..؟ أن أكون في خضمّ الأزمة.. في معمعة القهر.. وأنا راضية بقضاء الله.. عازمة على فعل ما يرضي الله تعالى، مطأطئة رأسي لرب العالمين، وأستعين به لأتحرّك ضمن الحيّز المتاح لي مهما كان ضيّقاً..!

تخبّط الطفل في بحر أحزاني، ثار غاضباً فيّ وراح يهجم، لم أفهم عليه.. أيريد أن يخرج ويغيّر العالم ..؟

أم أنه متمرّد على الدنيا ويريد أن يأخذني معه إلى عالم البرزخ...!! ما فهمته أن الموت كان قريباً مني ... قريباً جداً، أقرب إليّ من ذاك الماء الساخن الذي حصلت عليه النسوة بمشقّة شديدة، تحشرجت أنفاسي في صدري، دوّى الانفجار من حولي ، تعالت الصرخات، تطامى الخوف، غبت عنهم، صرت كنهاً ضائعاً في سراديب الحياة، في بيداء مفقودة، في مدينة لا تنام.. لا ترتاح.. لا تشبع.. لا تدفأ، النيران تشتعل في السماء والقلوب تشكو البرد، الإعانات تملأ الحدود، والبطون تشكو الخور، كل المدن لم تعد تنام، كل الأضواء ما عادت ترتاح. لمن بقي النوم..؟ لذاك الذي يهزّ سرير العدل والأمان، فيشخر الحقّ ساخراً

من جلبة الأقدام، ومن ضوضاء الكلام، كمن يسمع جعجعة ولا يرى طحيناً ..!

صاحت من فوقي أختي جميلة وهي تمسح عن جبيني العرق المتصبب :اصبري يا آمنة، اصبري.. لستِ أول النساء اللواتي يلدن تحت القصف.. يجب أن تعيشي..!!

اهتزّ صوتها من الأعماق وترقرقت عيناها بالدموع : نريدك أن تعيشي يا آمنة.. ونريد أن يعيش من في بطنك هاهي أمنا قد أنجبت ثمانية صبيان وأربع بنات وكانت تلد تحت الحرب والقصف والمجازر، من له عمر لا تقتله شدّة..!

أجبتها بصوت منهك.. نعم.. أريده أن يعيش، وسبحت عيناي في تلك السماء الداكنة المغبرة.. فلسطين.. كل فلسطين تنتظره..!

تذكّرت أبا محمد وهو يودّعني عند الباب وقد ارتدى بزّة الجهاد واحتوى في صدره كتاب الله تعالى، وعلى ظهره بندقية عنيدة، وضع يده على بطني، وابتسم ابتسامة أهل الجنّة، وقال لي : إن كان بنتاً فسمّيها غزّة..!

تلألأت عيناي بالدموع وسألته : وإن كان ولداً..؟

سحب نفساً عميقاً وقال بعنفوان وكرامة : سمّيه نصراً..!

التفّت النسوة من حولي وقد أخرجت كل منهنّ مصحفها وبدأن يتلون سورة الرعد، كان إمام المسجد رحمه الله قبل استشهاده ينصح بها عند عسر الولادة .

عاد القصف مجدداً.. وعلى فترات متقاربة، والسماء كل تارة تنير الظلمة بقنابل الفوسفور الأبيض، وكأنَّ الشرّ يعلن مهرجان ألعاب نارية محرقة.. لا.. لن يستطيعوا حرقك يا فلسطين، مع أنَّ من أبنائك من اضطرّ لتغيير اسمه ليحصل على لقمة العيش.. مثلما فعل محمود ابن أختي جميلة حينما ذهب ليعمل في يافا، فصار اسمه دودي صبي المطعم، أو مثل موسى ابن أخي الذي صار موشى عامل محطة البنزين، لكنهم وإن غيَّروا أسماءهم فقلوبهم تنبض باسمك الخالد يا فلسطين. وهاهو محمود وموسى وغيرهما كثير قد التحقوا بساحة المعركة، الكلُّ يذود عن حياضك، عن حدودك التي ما عرفوا كيف يرسمونها، الكلُّ يحمي تاريخك الذي ما عرفوا كيف يخطُّونه.

قال لي أبو محمد مرَّة : يظنُّون أنَّهم بالمنهج الدراسي الذي وضعوه سيمحون تاريخنا، والله يا آمنة لا يخرج الروح إلاَّ بارئها، أنا لا أدرِّس طلاَّبي إلاَّ تاريخنا الحقيقي، تاريخنا الذي عشناه وعاشه أجدادنا حتَّى حكت عنه كلُّ شجرة وكلّ غيمة، تاريخنا المليء بالتضحية والمآثر، وتاريخهم المليء بالخيانة والمكائد ، احتدَّ يومها وقال :

تخيَّلي..تخيَّلي يا آمنة..وصلت بهم الوقاحة أن يغيِّروا معالم فلسطين..!

قلت له بسكينة الواثق : اطمئن يا أبا محمد، تاريخ فلسطين مكتوب في قلب كلِّ طفل قبل أن يولد، لا تخش عليه..!!

جاءتني هجمات قوية، شعرت بأنفاسي تخرج، بصوتي يتشقَّق، ملأ رأسي صوت طلبتي وأطفالي عندما أنشدوا في حفل المدرسة بزهرة المدائن..

كان صدى أصواتهم يعلو.. الغضب الساطع آتٍ ...من كلِّ طريق آتٍ...

ازداد الدفق من أحشائي، تقلَّصت عضلات بطني حتى مزَّقت أوصالي، هناك دفع قوي يريد الخروج بروحي.. بحياتي.. بوطني.. صرخت قوياً.. استنجدت عالياً.. يا الله.!

فاقت أصوات استغاثتي كلَّ الأصوات، كلَّ الضوضاء ، كلَّ القنابل، هناك شيء يخرج مني، أيادٍ تعبث بي، هناك من يسحب الودجين من عنقي ليخرجهما من تحتي، تتطاير ذرَّات جسدي، تطأطئ جلدة رأسي، تشتعل جمرة عيني فلا أعود أبصر شيئاً..

صرخت بقوة، سقط شيء في يدي خالتي وانزوى عني ثقل بطني، لكنَّ صوتي دمَّر كلَّ ما حولي، ما

عدت أسمع غير صوتي، كلُّ شيءٍ انتهى.. وما زلت أصرخ.. أتألم.. أنتظر سماع صرخة غير صرخاتي، أنتظر سماع بكاء طفل، صمتٌ.. وجمتُ.. لم يكن هناك غير الصمت..!

تأمَّلتُ من حولي فعجزت عن ترجمة تعابيرهنّ تزايدت خفقات قلبي، غارت تساؤلاتي، بُحَّ صوتي، العيون تمركزت على يدي خالتي، قطع عذابي.. صراخٌ عذب..!

obeikandl.com